كتب مفقودة وأطاريح مزيفة

مكتبات الجامعات العراقية

البعض يشتري كتبا كلفتها ٨٠٠ دولار

تحقيق وتصوير \ وائل نعمة

حينما ذهبت (هدى) الى مكتبة الكلية لتبحث عن مصادر خاصة بدراستها، لم تجد ضالتها في هذا المكان ، مما دفعها إلى ان تتجه الى مكتبات أخرى ، تتكبد من أجلها عناء الطريق والجهد والوقت الذي يذهب دون مبرر، ناهيك عن المال الذي يبذل من أجل الحصول على مصادر المفروض بها ان تكون متوفرة في مكتبة الكلية. هدى طالبة الماجستير في كلية التربية (ابن رشد) التي تبحث في طرائق التدريس وهو موضوع دراستها للماجستير ، تشكو من مشكلة حدثت في كليتها ودائما ما تحدث ، وتعطل مسيرة طالب الدراسات العليا وتجعله مقيدا ، لأنها تمس صميم عمله الا وهي مشكلة المصادر، من كتب وأطاريح ودوريات وغيرها .

افتقار المكتبات الى نظام أرشفة حقيقية

حيث ان كلية التربية في جامعة بغداد (أبن رشد) تحوي مكتبة صغيرة وفيها عدد محدد من الكتب الخاصة بدراسات التربية المختلفة ، ورغم شحة كتبها هناك من يفاقم المشكلة ، حيث ماتزال هدى منذ اكثر من أسبوع ما تزال تبحث عن كتب مهمة لدراستها وبحثها ، ودونها لن يستقيم الأمر وستضطر الى ان تسلك طرقا اخرى للحصول عليها ، و المشكلة تكمن في ان إحدى التدريسيات في الكلية قد استعارت هذه الكتب لطالب اخر من خارج الكلية او الجامعة وأياً يكن، المهم انها اخذت الكتب وسجلت الاستعارة بأسمها ولم ترجعها الى الآن .

أمينة المكتبة تجد ان هذه مشكلة دائمة الحصول ، حيث ان معظم المكتبات في الكليات المختلفة تعتمد نظاماً للإعارة ، حيث ان طلاب الكلية هم الوحيدون من لهم الحق في استعارة الكتب ولمدة ثلاثة ايام من مكتبة الكلية ، وغيرهم يسمح لهم بتصوير الكتاب او الاطلاع عليه داخل المكتبة ، اما الاطاريح فلا يسمح بتاتا باستعارتها وإنما فقط استنساخها بجهاز النسخ الموجود داخل المكتبة .

لكن أحيانا تحدث بعض (الاحراجات) من خلال قيام احد التدريسيين باخذ كتاب لطالب اخر(خارج او داخل الجامعة) ،ويذهب والكتاب في يده وأحيانا كثيرة يتأخر في إرجاعه، وهنا تقع المشكلة حينما يأتي الطالب باحثا عن كتب او مصادر خرجت ولم تعد !

البحث عن المصادر

طالبة أخرى وجدناها قابعة في مكتبة كلية الآداب تقلب الاطاريح، وتنظر بعين (المغبون حقه) لأنها تركت مكتبة كليتها التي تعطيها الحق في استعارة الكتب ، وجاءت باحثة في مكتبة كلية أخرى لا تعطيها الا حق الاطلاع او تصوير الاوراق داخل أروقة المكتبة . ف (هديل) طالبة الدراسات العليا في كلية التربية بجامعة بغداد ضاقت ذرعا بالبحث عن الكتب الخاصة بدراستها ، وقد وجدت نفسها في كل المكتبات جالسة تبحث بين الأوراق عن فصول وأبواب وأقسام تنفعها بدراستها ، وفي أحيان كثيرة لا يجدي بحثها نفعا فتضطر الى الخروج الى الشارع وتجند أخاها معها لأنها تخشى الخروج بمفردها، وتتجول في شارع المتنبي وباب الشرقي عسى ان يكون لبحثها مخرج.

مكتبة الأداب

فيما كانت أمينة مكتبة كلية الآداب بجامعة بغداد ، (نجاة علي) غير راضية تماما عن حالة المكتبة ، لكن للضرورة أحكام كما يقال . فالمكتبة قد سرقت وأحرقت بعد احداث ٩\٤ ولم يبق منها غير الرماد ، بعد ان كانت عامرة بكتبها ومخطوطاتها ووثائقها ، فالمكتبة ما تزال تعاني من عدم وجود المخطوطات. والاطاريح فيها نقص ٢٠٪ ، ولولا خزن نسخ أخرى منها في مخزن الكلية الخاص الذي لم يصله الحريق لذهبت كل الاطاريح وأصبحت أثراً بعد عين. وبجهود المحبين والمهتمين بالكتب ، والساعين لإعادة مكتبة الكلية في خدمة الطلاب، استطاعت الكلية ان تستعيد أنفاسها ،بعدما أعيد بناؤها من جديد ، وقامت مؤسسة اصدقاء الكتاب برفد المكتبة ب ٥٠٠ كتاب ، وتوافدت الاهداءات من الأساتذة والشخصيات الأدبية والسياسية ، وقد ساهمت الدكتورة فائزة حسين هادي وزوجها المقيمان في انكلترا بأهداء مكتبة كاملة من الكتب المهمة الى مكتبة الكلية .

ومن جهة اخرى هناك جانب سلبي قد جعل المكتبة تخسر الكثير من كتبها المهمة ، حيث تنوه امينة المكتبة الى هذه الظاهرة السلبية ، وهي ما قام به بعض الطلاب الذين استعاروا كتباً قبل سقوط النظام من المكتبة وعندما أعيدت الدراسة بالجامعات لم يقوموا بإرجاع الكتب التي استعاروها. ورغم مطالبة الجهات الأمنية للبعض منهم ممن تذكروا بأنهم اخذوا كتباً ولم يعيدوها الا انها تقابل بالإنكار ويصرون على أنهم لم يأخذوا اي كتاب .

وببقائنا في مكتبة كلية الآداب وجدنا حسن النجفي احد طلبة الدكتوراة في الادب العربي بجامعة الكوفة ، وكانت هناك حالة من الاستغراب بسبب انتقال حسن من مكتبة جامعة الكوفة واللجوء الى مكتبة جامعة بغداد قاطعا كل تلك المسافة ! لم يكن حسن محبا للسفر وترك أهله ولم يقطع كل هذه المسافة الا اضطرارا لان مكتبة جامعة الكوفة فقيرة جدا في الاطاريح وهي ما يبحث عنها ، لذلك جاء باحثا عنها في مكتبة كلية الآداب التي يقول عنها :انها أفضل بكثير من مكتبة جامعتنا ورغم قلة المصادر هنا أيضا الا أنها أفضل حالا من غيرها .

مكتبة في الصباح فقط

حين تدخل الى مكتبة كلية الهندسة بجامعة بغداد فانك ستجدها مليئة ومكتظة بالكراسي والطاولات لكن دون قراء! أمينة المكتبة (ليلى) ترى ان الإقبال جيد بالنسبة لطلبة الدراسات العليا ومتوسط بالنسبة لطلبة الدراسات الأولية وأكثر الطلاب حضورا هم طلاب هندسة الميكانيك وهندسة المدني لان دراستهم تحتاج دائما الى مصادر خارجية . وعند سؤالنا عن حال المكتبة التي تشكو قراء، ذكرت بأن الوقت متأخر بعض الشيء والمكتبة عادة ما تكون مزدحمة في الصباح لذلك تجدون الآن المكتبة فارغة . وعن مستوى الاقبال المتوسط الذي ذكرته أمينة المكتبة اوعزته الى ان الظروف التي يعيشها الطالب الاقتصادية وشؤون الحياة العامة التي تشغله قد أخذت حصتها من وقت القراءة والاهتمام بالمكتبة ، بالإضافة الى بروز الانترنت الذي اعتمد عليه الطلاب بشكل كبير خصوصا وأن المكتبة تعاني من شحة في وجود الدوريات العلمية التي هي من المصادر المهمة في دراسة الهندسة ، ونحن نحاول ان ندعم الكلية من خلال شراء بعض الكتب من المعارض بالإضافة الى الاهداءات من منظمة الحياة للإغاثة التي أعطت الكثير من الكتب إلى المكتبة .

حلول مكلفة

وأثناء حديثنا مع أمينة المكتبة دخل طالبان وجلسا أمام إحدى الطاولات ، فتوجهنا إليهما واستقصينا حالة المكتبة وعن مدى اهتمامهما بالاطلاع على الكتب الخارجية ومدى تلبية المكتبة لاحتياجاتهما ؟ يقول (سامر) طالب الماجستير بهندسة النفط : حقيقة نواجه صعوبة في إيجاد او معرفة هل الكتاب الفلاني موجود في المكتبة ام لا ، ويعود السبب الى نظام الأرشفة والتصنيف القديم وغير العملي المعمول به في المكتبة ، لذلك ستكون اول خطوة لك في المكتبة يكتنفها الغموض لأنك لن تعرف كيف تبحث .

وشاركنا زميله (بشار صاحب) بالحديث قائلا : ان المكتبة ومعظم مكتبات الجامعات العراقية تعاني من شحة المصادر العلمية وخصوصا الدوريات بالإضافة إلى قدمها ، فالدراسة العلمية تريد الحداثة في المعلومات وليس الاقتصار على كتب قديمة ، والقصور بالمصادر الموجودة في مكتبة الجامعة يجعلك تعتمد على شراء الكتب من المكتبات الأهلية والكتب المختصة بصناعة النفط مكلفة جدا بالإضافة الى ندرتها ، لذلك تكلفنا الكثير. فبعض الكتب الأصلية تصل الى ٨٠٠ دولار ، وفي اقل تقدير الكتب المستنسخة تصل الى ١٠٠ دولار ، هذا بالإضافة الى الاستنساخ اليومي الذي يكلفنا ٥٠٠٠ دينار .

مكتبة العلوم السياسية

وليس بعيدا عن مكتبة الهندسة اخترقنا بحيرة كلية العلوم السياسية متوجهين الى مكتبتها للاطلاع على أحوالها ، بعض الطلبة الذين صادفناهم اكدوا لنا ان مكتبة الكلية غير معروفة لديهم الى الآن ، بالرغم من ان بعض من تحدثنا إليهم كانوا في المرحلة الثالثة ، وآخرون يقولون ان المكتبة يتم الدخول إليها في المرحلة الرابعة لأننا مطالبون بأعداد مشروع للتخرج ولذلك نلجأ الى المكتبة وبعدها سنبحث فيما اذا كانت المكتبة جيدة ام لا .

وحين دخلنا الى المكتبة وجدناها أرضا مقفرة لإقراء فيها ، ونحن في خضم الحيرة والدهشة بادرتنا (ناهدة) امينة المكتبة بالسؤال عن ماذا نبحث ، فما كان منا الا ان نسأل عن القراء الذين لم نجد لهم أثراً ، فأجابتنا كالإجابات السابقة ان الوقت متأخر ولن يأتي الطلاب في هذا الوقت !!.وتذكر أمينة المكتبة بأن الإقبال كبير على المكتبة وخصوصا من طلبة الدراسات العليا وطلاب المرحلة الأخيرة، وعلى حد تعبير أمينة المكتبة ذكرت بأن معدل الاستعارة اليومي حوالي ٣٠ كتابا ، وقد زاد الإقبال على المكتبة بعد عام ٢٠٠٦، وهناك حضور من طلاب من خارج الكلية وأحياناً من جامعات أخرى مثل النهرين والمستنصرية ، لكن كما هو معروف الاستعارة فقط لطلاب الكلية حصرا .

وما لا يخفى على الجميع أن المكتبة تعاني من بعض النقوصات من حيث المصادر ، وهذا يبدو جليا للقارئ حينما يقارن حالة المكتبة مع المكتبات التجارية في الشارع ، وان اكثر الكتب او المصادر المفقودة في المكتبة هي الكتب التي تختص بالأنظمة السياسية والعلاقات الدولية فالكثير من الطلاب يعانون حينما يريدون الخوض في بحث يتعلق بهاتين المادتين .

المكتبة المركزية

وفي اروقة المكتبة المركزية بجامعة بغداد وجدنا نظاما جديدا قد استحدث وهو نظام الفهرست الآلي والمكتبة الالكترونية ، وهي تقدم خدمة سريعة للقارئ تقلل من الجهد والوقت المستغرق بالبحث. فبمجرد وضع اسم الكتاب او المؤلف على حقل البحث في الكومبيوتر وضغط زر الادخال سيعطيك النتيجة فيما اذا كان الكتاب موجودا في المكتبة ام لا وفي اي قسم موجود .

حاولنا لقاء الامين العام للمكتبة المركزية الا ان الجميع قد أكد لنا بأنه لايتحدث الى الاعلام منذ ٢٠٠٦ ! فيما قام المكتب الاعلامي الخاص بالمكتبة بالتحدث بالنيابة عنه ، حيث قالت (سجى الطيار) المسؤولة في قسم الاعلام بأن الكتب والاطاريح في تجدد دائم ، ودائما ترفد الجامعة بالجديد من الكتب من خلال المعارض التي تقام سواء على ارض الجامعة او خارجها ، بالاضافة الى الاهداءات من الامم المتحدة والمنظمات الدولية الاخرى. وعن احدث الكتب التي وصلت المكتبة كانت من خلال معرض الكتاب الذي اقيم في القاهرة في وقت سابق قريب .

واوضحت المسؤولة عن قسم الاعارة رجاء جواد ، بأن الاقبال على المكتبة من الطلاب افضل من العام الماضي ،وفي بداية اول ثلاثة اشهر من بداية العام الدراسي يكون الاقبال اكثر من قبل الدراسات الاولية ثم يخف تدريجيا وبعد ذلك يبدأ طلاب الدراسات العليا بالحضور الى المكتبة .

وفي احصائية للكتب المعارة من المكتبة من شهر آب الى نهاية شهر تشرين الاول كان العدد قد وصل الى ٢٨٩٥ كتابا ، ٦٠٠ منها الى الأساتذة ، و ٨٧٥ لطلبة الدكتوراه ، و ١٢٠٥ لطلبة الماجستير ، اما الاقل فهم طلبة الدراسة الأولية بمعدل ٢١٥ كتابا .

فيما قالت فاتن عبد القادر المسؤولة في وحدة الاطاريح ورسائل الماجستير : ان الإقبال أصبح ضعيفا على القسم بسبب اعتماد الكثير منهم على الانترنت . وعن مدى نشاط هذا القسم وتلبيته لطلبات الباحثين أوضحت (فاتن) : أن القسم يعاني من فقدان بعض الاطاريح لان بعض الطلاب لا يسلمون نسخة من اطاريحهم . والجدير بالذكر أن نظام المكتبة يقوم على ان كل طالب في الدراسات العليا حينما يسلم أطروحته او رسالته يكون مجبرا على ان يسلم نسخة منها على قرص مدمج الى قسم الاطاريح ، لكن البعض لايريد ان يقوم احد بالاستفادة من أطروحته فيقوم بتسليم المكتبة قرصا (تالفا)!!

وفيما كانت زينب مسؤولة قسم المراجع مشغولة بترتيب الكتب ذكرت لنا بأن هذا القسم يختص بتقديم الموسوعات العلمية الى طلاب الدراسات العليا فقط، وتجد الاقبال متوسطا من قبل الطلبة لان الكتب الموجودة قديمة جدا فهي ترجع الى ستينيات القرن الماضي وطلاب الطب والهندسة والعلوم يشكون دوما من قدمها.

بينما كان قسم (المايكروفيلم) في المكتبة، يوحي بأنه مكان مهجور وغير ذي فائدة، حيث قال مسؤول القسم ، بأن القسم تأسس في بداية السبعينيات وكان يحتوي على أجهزة وكاميرات تصوير بسيطة لتحميض الأفلام ، وظلت هذه الأجهزة على حالها ولم تتغير ونحن ننتظر ان يقدم لنا أحد أجهزة جديدة تعيد الحياة الى هذا المكان.

المكتبة الافتراضية

المكتبة الافتراضية هي أحد ملامح التطور التكنلوجي الحديث ، وقد انشئت هذه المكتبة في جامعة بغداد سنة ٢٠٠٤ وبدأ العمل فيها عام ٢٠٠٥ ، واستطاع القائمون على هذا المشروع التقدم الى الأمام خطوات كبيرة ، من خلال الأعداد والتدريب على استخدام هذه التقنية حيث تم توسيع المشروع من ٦ جامعات الى شمول ٢٥ جامعة عراقية و٥ وزارات و٥ هيئات حكومية واستطاع خلال هذه السنوات أكثر من ٨٠٠٠ آلاف مستخدم تحميل أكثر من ٧٠٠ ألف بحث علمي .

المكتبة الافتراضية عبارة عن تنظيم وإدارة مجموعة من مصادر وخدمات المعلومات المتاحة والمتوفرة إلكترونياً عبر شبكة الإنترنت. ويشتمل ذلك على دمج المصادر والخدمات وتقديمها من خلال منفذ واحد ألا وهو شبكة الإنترنت. كذلك فإن المكتبة الافتراضية تشمل إتاحة وتوفير خدمات ومحتويات المكتبات عن بعد ولأماكن بعيدة. والربط والجمع ما بين إتاحة كافة أنواع مصادر المعلومات المتواجدة في المكتبة والتي يكثر الإقبال عليها وبين المصادر الإلكترونية وتقديمها من خلال شبكة إلكترونية. لذا فإن المكتبة الافتراضية هي مكتبة عالمية متاحة إلكترونياً، وإنها المكتبة التي تسهل على المستفيد الوصول إلى كم هائل من المعلومات حال الطلب وفي الوقت الذي يجده مناسباً وبدون أي تأخير وتوضع هذه المعلومات أمامه وهو جالس على مكتبه.

وان المكتبة العلمية الافتراضية العراقية (IVSL) هي موقع على شبكة الانترنت يمكن الباحثين من أساتذة وتدريسيين وطلبة في الجامعات ومراكز البحوث العراقية من الوصول إلى مجموعة مميزة من ملايين المقالات الكاملة المنشورة في أكثر من ٢٠،٠٠٠ مجلة علمية وهندسية بارزة وأرشيفاتها، بالإضافة إلى محتواها التقني ومصادرها التعليمية.

ويذكر مدير المشروع الدكتور بهاء إبراهيم بأنهم يقيمون دورات مستمرة في استخدام الموارد الالكترونية وتشمل التدريسيين فقط ، وبالتالي سيقوم الأستاذ بتدريب الطلاب لأنهم لا يستطيعون استيعاب أعداد كبيرة لتدريبهم ، وحسب قول المسؤول فأنهم قد دربوا ٨٠٠ أستاذ جامعي بواقع ١٠٠ شخص شهريا .

يجد القائمون على هذا المشروع أنه من أهم المشاريع التكنلوجية خلال الأعوام الاربعة السابقة ، والذي جاء لمواكبة التطورات فقد تحول الكتاب من ورق الى كتاب الكتروني ، وهناك توجه عالمي بإلغاء استخدام الورق و(رقمنة كل البحوث العلمية)، لأنه يأخذ وقتا وجهدا ويكون عرضة سريعة للتلف ، كما انه مضر بيئيا ، كما ان الكتب الرقمية تكون أسرع إصدارا وأكثر حداثة حتى يكون ممكنا ان تجد بعض الكتب تصدر في شهر معين ولكنها موجودة قبل ذلك التاريخ في المكتبة الافتراضية .

ولكن اللافت للانتباه ان معظم الطلاب الذين سألناهم عن المكتبة الافتراضية كانوا لا يعرفون عنها شيئا ، وهناك من سمع بهذا المشروع ولكن لم يقم احد بتدريبه . ويقوم التدريب على استخدام أفضل الطرق لتوظيف الموارد الالكترونية الموجودة على شبكة الانترنت للولوج إلى أمهات الكتب والمصادر العلمية والتي معظمها اذا ما كانت كلها باللغة الانكليزية وهذا قد يكون معوقا امام من لايجيد اللغة الانكليزية .

المشكلة في الطالب

وعن حالة عزوف طلاب الجامعات عن الدخول الى المكتبات الخاصة بكلياتهم وضمن اختصاصاتهم ذكرت الاستاذة (ماجدة شاكر) مدرس مساعد بقسم الاجتماع بكلية الاداب (جامعة بغداد) بأن الطالب الجيد والمتواصل مع العملية العلمية سيكون زائرا دائما للمكتبة وستكون من اكثر الاماكن المحببة اليه، بينما الطالب المهمل لن يكون مهتما بها .في السابق كان الطلاب يذهبون الى المكتبة بدافع المصلحة والحرص على المستقبل، بينما الان الطالب يبحث عن النجاح فقط دون ان يكلف نفسه عناء الفهم او الاستفادة من دراسته او توسيع مداركه وثقافته، متذرعا بأن لاوقت لديه او ان له مسؤوليات كبيرة على عاتقه . وتضيف بأنها تحث طلابها على عدم الاكتفاء بالكتب المنهجية لانها الحد الادنى من المادة، وهي دائمة الاصرار على ان يبحث طلابها في مصادر خارجية.

مكتبات منفرة طاردة

بينما اعتبر الدكتور فارس كمال أستاذ علم النفس بجامعة بغداد أن هذا الموضوع منقسم الى شقين الأول فني ويتعلق بمستوى المكتبات ، والثاني يعتمد على مدى إقبال الطلاب على القراءة ، والأمران ملتصقان ببعض ولا يمكن ان ينفصلا ، فالمشكلة في الجانب الأول تكمن في افتقار المكتبات الى نظام أرشفة حقيقية والى نظام عمل متطور ، يوصل المطبوع بشكل منظم وسلس للطالب ، حيث ان المكتبات تعاني من أبسط أنواع التنظيم والتبويب فضلا عن افتقارها الى الخدمات الأخرى من قبيل التدفئة والتبريد وأجهزة استنساخ والإنارة ونظافة المكان والأثاث .

كما ان المكتبات فيها نقص كبير في توفير المراجع الحديثة من كتب ومجلدات ودوريات فضلا عن ان تكنلوجيا المعلومات شبه غائبة .

اما الجانب الآخر من المشكلة المتعلق بالطالب ومدى رغبته بالقراءة فمن المؤكد ان السلبيات التي تعتري المكتبات قد أدت الى نفور الطالب من دخولها ، فأصبح المكان طاردا خصوصا فيما يتعلق بالفوضى الإدارية ، فالطالب حينما يسمع كلمة (خشنة) او غير لائقة من المسؤولين عن المكتبة لن يعيد الكرة مرة أخرى ، وحينما لا يجد ما يبحث عنه لن يراجع المكتبة في أوقات احتياجه لها .

كما ان هناك نزعة عامة لدى الطلبة بالعزوف عن الاستحصال الحقيقي للمعرفة والابتعاد عن دور الثقافة ، مفضلين قضاء الوقت باللهو في أروقة الجامعة واستسهال الحصول على المصادر من خلال الاعتماد على مكاتب الاستنساخ القريبة من الجامعات والتي أيضاً تضع لافتات كتب عليها: يوجد لدينا بحوث وتقارير وحسب الطلب.

كتب بلا قراء

في إحصائية للكتب المعارة من المكتبة من شهر آب إلى نهاية شهر تشرين الاول كان العدد قد وصل الى ٢٨٩٥ كتابا ، ٦٠٠ منها الى الأساتذة ، و ٨٧٥ لطلبة الدكتوراه ، و ١٢٠٥ لطلبة الماجستير ، اما الأقل فهم طلبة الدراسة الأولية بمعدل ٢١٥ كتابا .

مكتبة بلا طلبة